

قراءة نقدية في ديوان..

مدائن الفجر..



للشاعر الإسلامي:

صابر عبدالدايم

أضحى الشعر الإسلامي قادراً على إضاءة دواخلنا الحزينة، رغم ركام الواقع الذي يحاصرنا، أضحى قادراً على الشدو، وبثّ التفاؤل أمام النواخذ الموصدة بالأسى!

فهل يطمح ديوان «مدائن الفجر» للشاعر الإسلامي المصري صابر عبدالدايم لهذه البشري؟! صدر الديوان عن دار البشير في عمان ضمن منشورات رابطة الأدب الإسلامي العالمية لعام ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م في ثلاث وسبعين صفحة من القطع المتوسط، يزخر هذا الديوان بالحقل الإيماني، ويبدو ذلك واضحاً من خلال عناوين قصائده العشر: (مدائن الفجر، وإسلاماه، أقباس من ملحمة الإيمان، أعراس الشفق، محمد ورحلة اليقين، نقوش على جدران المسجد الأقصى، السفينة والطوفان..) ومن هنا نجد قصائده مفعمة بالرؤى الإيمانية الوجدانية، والفاظه ومعانيه تحفر في نخاع المواقف السامية والأخلاق الفاضلة.

والموج حول ضيائها مثل أعلام (١)

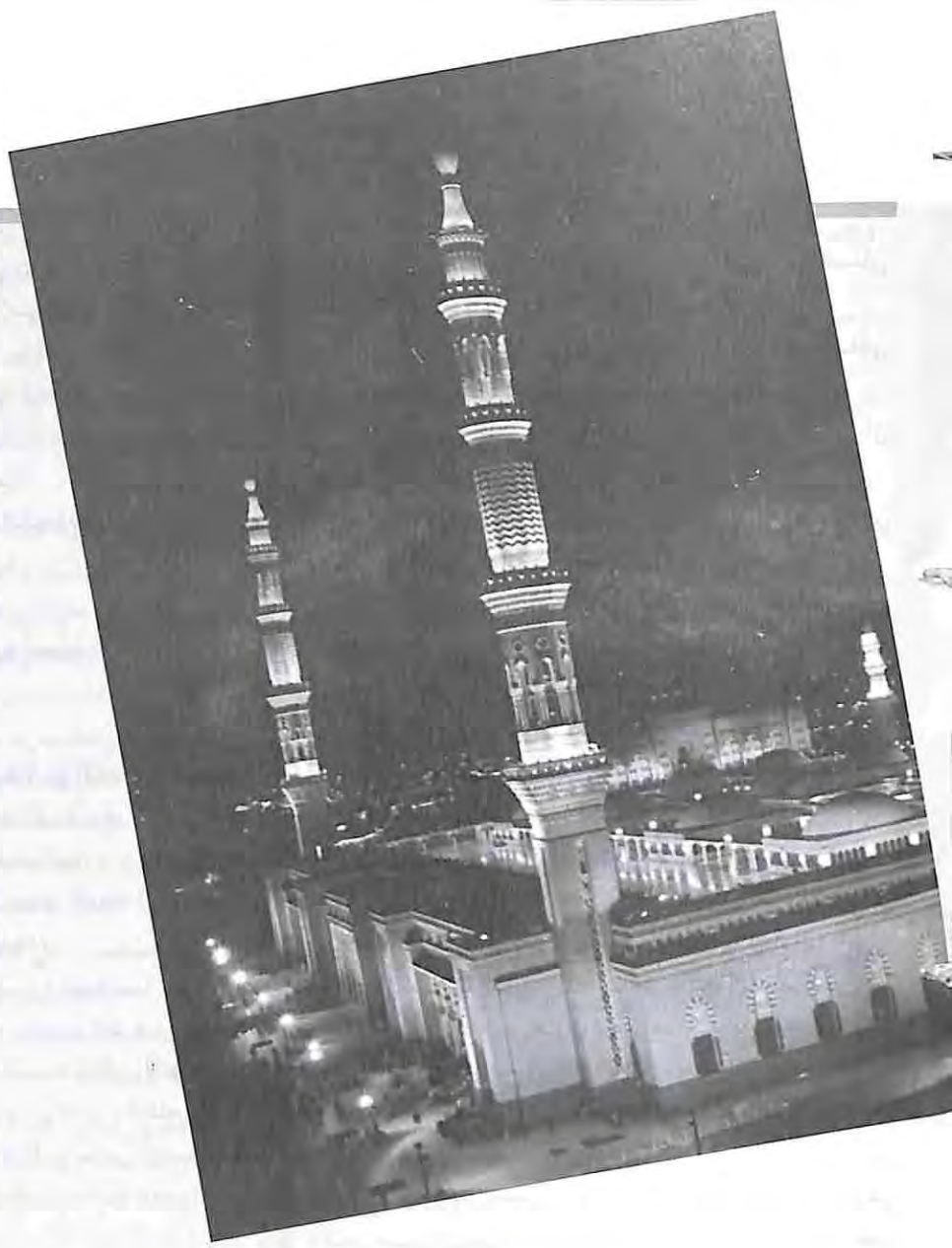
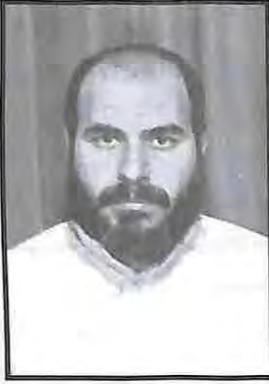
إن إلحاح الشاعر على الفعل «نعود» حيث كرره أربع مرات في ستة أبيات، ليحملنا إلى عطر الماضي المجيد، الماضي الذي بناه سلفنا الصالح بتضحياتهم وبطولاتهم، ومن هنا نرشف الأسئلة الموجعة المتقاطرة التي يُشهرها الشاعر صابر عبدالدايم مرددين: فهل نعود كما كنا بني رحم؟! ولأن العودة إلى أمجادنا وانتصاراتنا قادمة بإذن الله، والمستقبل لهذا الدين كما أخبرنا المصطفى صلى الله عليه وسلم فلا بد من حمل السيف، تحمله الأكف الموحدة المؤمنة، الأكف التي تزود عن أوطاننا الإسلامية، ومن هنا تكرر الفعل «نعود» في كل بيت من أبياته عبر صيغ متنامية تستحضر التاريخ وتحاور رموزه كقوله: ترنو لبدر وفجر الحق في أحد

يقول في قصيدته «مدائن الفجر»:

فهل نعود كما كنا بني رحم
نقضي على هاتف في النفس قسّام؟
نعود من غربة للتيه نُطعمنا
ونرقب الفجر يأتي بعد إظلام
ونحمل السيف في كف موحدة
تذود عن وطن في فك إجرام
ترنو لبدر وفجر الحق في أحد
تهفو إلى «أسد» للشرك قسّام
فمن هناك نعود الآن قافلتني
وتبصر الفجر في آفاق إسلامي
تعود في ثبج الإيمان سابعة

بقلم:

محمد شلال الجناحنة



مواجه عدة، لما فيه من استغاثة وألم، وعموماً فالقصيدة تقوم على صوتين متقابلين، صوت الليل وما فيه من آلام ورياح شيطانية عاتية، وحيل ثعبانية، وظلال واهمة، والصوت الثاني صوت الفجر القادم وما يحمله من ملامح قرآنية وحداث إيمانية، ورايات إسلامية، وزرافات الشهداء، ولذا فالقصيدة في فضائها ترنو لاستثمار مدخراتها الإيمانية الرقيقة من خلال التكتيف الحي المشرق في نهايتها لتسكب وهجها الذي ننتظر، فيلبس الشاعر الظلال المعنوية ظلالاً حسية قادرة على شحننا بومضات مشرقة، وحسبنا قوله: «والفجر على أبواب مدائننا يرفع رايات إسلامية» (٢) وإذا كان العمل الأدبي قطعة حية من وجدان الأديب ومشاعره وأحاسيسه وروحه ونفسه (٣)، فإن هذا الوجدان يبدو وجداناً جماعياً في قصيدة «أعراس الشفق»

تهفوا إلى «أسد» للشرك قصّام

ويمكن بجلاء ملاحظة قدرة الشاعر على تفعيل الهم الجماعي في استخدامه ألفاظاً موحية: (نرقب، تبصر، تذود، نقضي...) ولقد وفق الشاعر بربط الجزء الأول من القصيدة بأفعال ماضية موحية بالأسى إشارة إلى واقع الأمة المؤلم المجزأ فنجد الأفعال: (كنت، صرخت، حطمت، وعيت) كما يتضح فيها الإسناد الإفرادي، بينما جاءت القصيدة في جزئها الثاني تنبض بأفعال حاضرة عبر إسناد جماعي مكثف نسائم التفاؤل والانتصار القادم الموعود بإذن الله كما مثلنا في الأبيات السابقة.

أما قصيدة «والإسلام» فهي تضيء من مواقع الاستلاب ومحاوله طمس الهوية، وهي تفجعنا بتفاصيل حزنها وجراحاتها في أكثر من موضع، فالنداء في عنوان القصيدة يفجر في قلوبنا

لشاعرنا صابر عبدالدايم حيث يمضي بنا إلى عطاءات الشهداء، إلى المآذن في سراييفو، والقصيدة في جوها العام تؤرخ لحقائق الشهادة ليعود المجد الكريم رغم الأسى، وهي تستضيء منذ البداية بالقرآن الكريم لفظاً ومعنى، وجاءت هذه الاستضاءة عفوية، أشعلت فينا الحنين إلى الجهاد لتحرير الوطن الإسلامي من براثن الكفر أينما وجد، وتغدو لازمة القصيدة المكررة في أكثر من موضع نغماً يقدونا إلى النفي:

وإلى ربا الفردوس كل قوافل الشهداء
كالأشجار تصعد

لتعود بالقرآن كوناً قد توحد
كل المسافات انتفاضة أمة تهوى محمد
كل الدماء حدائق
تهدي عطاياها محمد (٤)

وتزيدنا القافية الدالية الساكنة اشتعالاً مع الأحداث الدامية في تلك الدولة الإسلامية التي ستظل بوابة الإسلام إلى أوروبا بإذن الله، ومن هنا كانت هجمة الكفر أعظم شراسة:

في سراييفو الجماعم شكلت سحب الدماء الداكنة
شادت من الأشلاء مئذنة وقبة (٥)

هكذا تسطع الرؤية الإسلامية والروح الحماسية عبر هذه القصيدة من خلال المفارقات المفجعة والصور الشعرية الموحية المتقدمة والألفاظ ذات الدلالة الإسلامية فالمآذن، والسماء، والمعجزة، والهدى، والرايات، والصور، والذكر، والفتح، والآي، والعقيدة، والقرآن تظل الفضاء اللغوي الذي تتنفس القصيدة من خلالها، وتأتي عبر صياغات مؤكدة أو مكررة تفيض علينا بشموس الحق.

وترفل قصيدة «أقباس من ملحمة الإيمان» بأشواق عميقة صافية لهذا الدين، وقد جاءت هذه الملحمة الإيمانية في ثمانية عناوين: بدأها بابتهاال ذاتي صافي، ثم التأمل واليقين، وفي العنوان الثالث يحدثنا عن معجزة القرآن الكريم في كل العصور، ويعرج بنا بعد ذلك إلى بدر الانتصار والحق، ثم بدر الوجه والقناع، ففتح مكة، وبعدها ليلة القدر، وأخيراً يختمها باليقين والوصول. في هذه القصيدة يوح وجداني عما في النفس من رؤى ومواقع، وهي في كثير من أجزائها تستحضر تاريخنا الإسلامي وتنفذ إلى أمجاد عبر شفافية الروح وسمو النفس، متكئة على الحوار والتشخيص، ويشدو الشاعر محاوراً مكة، مكة التي ستبقى عزاً لهذا الدين بإذن الله. مكة الفتح المين:

فخاطبتها والقلب يهدر عزة
سلام على العذراء سامية الشأن
فمدت يديها واستثارت مشاعري
فذوبت فيها ضوء شعري وألحاني
وقالت: رعاك الله أنت متيم
بكل جميل في حياتك فتان
وللمثل العليا فؤادك عاشق
وعبرت عنها في الحياة بأوزان
فخاطبتها والروح تشدو بسعدها
أيا أخت إن الناس في الكون صنفان
فصنف يروم العز لوضاع عمره
لهان عليه لم يعيش عيش جردان
وصنف له الدنيا مغارة مغنم
فما شرفاً يبقي ولا أي عنوان
وما تبسم الدنيا لغير مدافع
عن الحق ما يخشى سوى وجه رحمان (٦)

في هذا الحوار النقي المنطلق إلى عالم نوراني مشرق تنضج الحكمة الإسلامية، وهذه الحكمة تنهل من معين تراثنا المجيد وقيمنا الإسلامية المثلى، وتظل عناصر الحكمة الحية تميز قدراً كبيراً من قصائد شعرائنا (٧) وهي حكمة تحمل تجربة عميقة صادقة ليظل لهم سامياً واحداً، مهما تفصلنا المسافات، أما اللغة عند شاعرنا صابر عبدالدايم فهي لغة بسيطة خالية من التعقيد والغرابية.

كما تبرز لديه الصورة الشعرية وقربها إلى أذهاننا، وهي تنحو منحى الاستعارة والمجاز في كثير من الأحيان سواء كانت صوراً حسية أو معنوية: «فدوبت فيها ضوء شعري وألحاني» وإن كان الأدب في شموله انطلاقاً من عالم الضرورة، وشوقاً مجنحاً لعالم الكمال وثورة على آلية الحياة (٨) فإن الأدب الإسلامي سيظل من النماذج الفذة في حنينه وتجسيده لعالم الفضائل ومن هنا نقرأ قصيدتي «أين الطريق إليك» و «محمد ورحلة اليقين»، فهما يرشقان حزناً مورقاً عبر نبضهما المتجدد ونداءاتهما الجارحة وقضائيهما المؤجج بالاستفهام وثناء الخطاب الشعري المتنوع المتكئ على وهج التاريخ، والبوح الوجداني الشفيف تجاه الفضائل الإيمانية التي تسمو بإنسانيتنا!! يقول في قصيدة «أين الطريق إليك» مخاطباً رسول الله ﷺ:

الرؤية الإسلامية والروح الحماسية تسطع عبر قصيدة «أعراس الشفق».

ولقد نسينا والهوان سعى بنا
للذكريات ولم نعش ذكراكا
حتى غدونا للذئاب فريسة
والغاب شرعة كل من عاداكا
أنزل في قلب الجليد بلا هدى
يحيي موات قلوبنا لتراكا
أين الطريق إليك في زمن تنا...
فس كل ما فيه لمحو خطاكا
لكنها في الأرض أصل ثابت
وفروعها تتبوء الأفلاك (٩)
هذه النزعة الروحية في القصيدة، هذه المحبة للمصطفى تأتي
عبر أشواق رقيقة بعيدة عن الانحراف والمغالاة.
وتتفتح القصيدة عن ذلك التوق الشفيف لتمثل خطى النبي
عليه السلام، وسيرته العطرة! وليست غريبة هذه النزعة
الروحية وهذا التحليق في عالم الأشواق إلى الفضائل وأنوار
الهدى فالأديب الحق يعرف من أسرار الحياة ويسمع ما ترتله
أصباحها، وأمسياتها وهمسات ليلاتها ونفحات أسرارها ما لا
يدري به الناس إنه يحس الكون إبداعاً جميلاً ساحراً لرب حكيم
لطيف (١٠).

يقول في قصيدة.. «محمد ورحلة اليقين»:
هو الفضيلة في أسمى مراتبها
وإن تبدت غدت لا تعرف الرتبا
هو الضياء الذي ماجت أشعته
بالنفس حتى غدت لا تعرف الوصبا
يا رحمة مزقت أنوارها سُدُفاً
من الضلال وشادت كل ما كتبنا
قد كنت في حلم الإنسان أُمّية
وطالما لمناه الصعب قد ركبنا
وناء كاهله بالظلم وانطفأت
شموعه وغدت أعماقه لهباً
فجئت بالشرعة الغراء وارقة
ظلالها فجئنا الشهد والعنبا (١١)
إن أدبنا الإسلامي أدب عقيدة، وهو يحمل بذور خلوده
وصحته وسلامة رؤاه، فإننا نعتبر العقيدة سلامة في الرؤية
وامتلاء بالروح وصحة في الوجدان. وبعداً عن الانحراف
والإفساد، وقدرة على الانطلاق مستمداً من تصور رباني

إسلامي سديد (١٢).

وتبرق قصيدة «نقوش على جدران المسجد الأقصى»
بأقباسها من فلسطين، من هناك حيث المسجد الأقصى لم يزل
أسيراً جريحاً يئن تحت نير الاحتلال اليهودي البغيض، أما
السلم المزعوم والاستسلام والخنوع، أما السلام الحقيقي فيغدو
مبتور اليدين مع يهود، وذلك منبر القدس يكبر هاتفاً مستغيثاً
بالمسلمين.

إن أحرقوه وهدموا محرابه
فبكى وهم سمعوا الأتني فصفقوا
فالتأر يزحف في انتفاضة أمّتي
وبعزيمة الأحرار قلبي يشهق
والمنبر القدسي كبر هاتفاً
والغرب صمّ وقد وعاه المشرق
ماتت قضايانا بمجلس أمنهم
وضميرهم للزور دوماً يلحق
لا عدل لا إنصاف في زمن يسام
الحق فيه وبالضلال يطوّق
الله أكبر.. في الشدائد مدفعي
بالنصر برق ضيائها يتدفّق (١٣)

■ الهوامش:

- (١) الديوان من ص ٩ - ١٠
- (٢) انظر قصيدة «والسلام» ص ١٣
- (٣) انظر كتاب «الأدب الإسلامي ضرورة» د. أحمد محمد علي (عبد
زايد) ص ٦٤
- (٤) انظر الديوان ص ٢١
- (٥) انظر الديوان ص ٢٠
- (٦) انظر الديوان ص ٣٨، ٣٧، ٣٥
- (٧) لعلنا نفرد دراسة نقدية خاصة بالحكمة في شعرنا الإسلامي في
المستقبل بإذن الله
- (٨) محمد قطب، منهج الفن الإسلامي ص ٣٢
- (٩) الديوان ص ٤٩، ٥٠
- (١٠) محمد حسن بريغش، في الأدب الإسلامي المعاصر ص ١٥
- (١١) الديوان ص ٥٤
- (١٢) د. محمد صالح الشنطي، في الأدب الإسلامي. قضاياه، وقنونه
ونماذج منه ص ٣٧
- (١٣) انظر الديوان ص ٥٨



نرفل قصيدة «أقباس من ملحة الإيمان» بأشواق عميقة، صافية للخير الإسلامي